

فهرمنا المسكين ، كم نظامه !

قال لى الطبيب : أسبوع واحد فى الريف المصرى
الجميل ، كفيل بتهدئة أعصابك الملتهبة وإراحة نفسك المتعبة
المكدودة :

فذهبت إلى الريف . . .

ريف مصر الساحر الوديع ، ألتبس فى سكونه نوعاً من
العزاء ، وأنشد فى بساطته ، راحة البال وهدوء الذهن
المرهق .

دخلت القرية وكأني خلفت وراءى دنيا الضجيج والثورة
وطالعتنى صديقاتى الريفيات بوجوههن الكريمة المرححة ،
فرأيت فى ابتساماتهن القناعة ، شيئاً كثيراً من العزاء ،
ووحياً يغرينى بوضع الحمل الثقيل المرهق الذى يروح
كاهلى تحت ثقله ، ثم استنشقت نفساً طويلاً عميقاً وددت

فيه لو أحتوى كل ذلك الهواء المنعش في صدرى الملهب .
وفي طريقى مررت بالفلاحين . . . جيش مصر العامل
القنوع ، وكنز رخائها ونعمتها ؟ فأدركت مقدار إهمالنا
هذا الفلاح ، وتنكرنا له وإنكارنا إياه ؟
الفلاح المصرى . . رمز الشجاعة والكرم ، حتى ليجود
بلقمته التى يتبلغ بها ، ومثال النخوة والإيثار ، تتمتع نحن
على حساب دمائه وقوته وساعده ، ثم لا يضح بالشكوى ،
ولا يبدى التذمر والثورة ، صورة الرضاء والقناعة ، يعمل
طول يومه ثم تكفيه الكسرة اليابسة ، ابن الطبيعة والفطرة
ومثال الصبر والتقوى والإيمان .

فلا حنا المسكين كم نألمه !

منذ دبت الحياة فى وادى النيل ، والناس ينظرون إلى
نهر النيل الذى تخفق فيه ومنه الحياة ، نظرة الإكبار والدهشة
تسامى هذا الإكبار جيناً من الزمن إلى درجة التقديس
والعبادة ، وارتفع إلى حد اليقين بأن حياة الملايين من سكان
واديهِ ، تكمن فى مياهه الدافئة العجيبة ، الخافقة الغنية .

وبين تقديس آبائنا لمياه النيل ، وعظم تقديرنا لفائدة النيل ، جحدنا اليد العاملة التى تستغل الحياة الكامنة فى مياه النيل ، وألهانا ذلك السحر العجيب الذى ينفثه النهر فى صميم الصحراء الملهبة ، فيجعلها جنة ناضرة ، عن ذلك المخلوق الذى أظهر عظمة النيل ، وأتاح السبيل إلى تحقيق المعجزة . . . معجزة وجود الجنة المصرية بين ذراعين ملتهبتين من الرمال التى تغلى الدم وتصهر العظم ! وإلا فليمض الفلاح بعيداً ، هل يكون النيل بعده إلا دموعاً تسيل على الشاطئين فى كرم وإسراف ، كأنما تبكى ابن النيل البار ؟ !

الفلاح المصرى !

اليد الكريمة العمياء فى كرمها ، تعمل وتشقى حتى تحصل على أشهى الخيرات ، ثم تنثرها على بنى وطنها الجاحدين ، ولا تنظر هل فيمن يتمتع بثمرتها كدحها عدو جاحد ! فما أبلغ هذا العمى الكريم ، وما أنبل ذلك الكرم الأعمى ! ساعد مصر وعضدها الأقوى ، وابنها القنوع البار ، والجواب الساخر اللاذع لمن يقول إن من يزرع يحصد !

يا رحمة الله ! كم زرع فلاح مصر منذ دبت الحياة في
وادي النيل حتى الآن ! وكم يزرع وكم يحصد ، فهل حصد
الفلاح ؟ أجل حصد ولكن لكل الناس إلاله ولأولاده ،
إنه يجهز الوليمة دائماً لبطوننا النهمة ، لا لبطنه الجائع
المحروم .

النشاط الذي لا يفتر ، والجسم الذي لا يستقر ولا
يهدأ ، والآلة التي تعمل ولا تقف ! ولكن ما الذي جناه
ويجنيه ؟ الطعام يتباغ به ؟ جرعة الماء النظيفة يرتوى بها ؟
الكساء السليم يستتر به ؟ اللهم فاشهد . . .

لقد يمضي النهار طويلاً بطيئاً كأنه عمر من الشقاء ،
وكل ما يناله الفلاح المسكين قرصان من أرغفة الذرة الجافة
وبضعة أعواد من حشائش الأرض مهما تفتنا في تسميتها
(شيكوريا ، جعضيد ، جلاوين) فلن تزيد على الحشيش
الذي نشتره للأرانب .

وأما المياه ، ففي كل جرعة يتناولها آلاف الجراثيم ،
تعمل معنا على استنفاد جهود ذلك المخلوق ، واستلاب
قواه ، وتأتي في مهل على ما احتازه من جلد واصطبار ،

وتأني عليه أن ينعم حتى بلقمته الحافة القدرة ! ولباسه ؟
أقسم غير حائثة ، أن منه مالا يكفي ولو لستر العورة !

ذهبت إلى الريف . . .

كانت الأرض تتفجر بالحياة ! حتى لتكاد قطراتها تنز
على سطحها . . . امتلأت الأرض شبعاً ورياً فبدأ سطحها
يهتز نباته حياة وجمالاً وسحراً ! وبدأت الأشجار في عنفوان
شبابها وقوتها مشغلة بأثمارها الشهية الحافلة بذخر حلاوتها
وقد أثقلها الحمل فأحنت رأسها في حياء العذاري وارتعشت
كلما لامسها الهواء أو غردت فوقها الأطيوار تغريداً يملأ
المكان سحراً وفتنة وجمالاً !

دنيا حافلة بالروعة ، وحياة ممتلئة بالحياة !

لقد رواها النيل !

نعم ، ولكن لولا اختلاط الماء بعرق الفلاح المسكين
لما كان لهذه الجنة الناضرة حياة ، ولما كان للأرض بالماء
اكفاء !

وغذاها الغرين والسياد !

أجل ، ولكنه غذاء جاف ما كانت الأرض لتضمه

إذا لم يمزج بعرق الفلاح ولولاه إذن ما قيمة الماء ، وما
نفع الغذاء ؟

وهذه الأشجار الفارعة الهيفاء ، وتلك الأرض
المكتنزة الحية . هل فكرنا في ثمن حياتها الذي دفعه
الفلاح ؟

لا : ولم التفكير وفيم العناء . مادمننا نرى خيرات
الأرض تملأ الأسواق ناضجة شهية ؟ !
لقد تشمر الأرض أشهى الثمرات وأطيب الفاكهة ،
وأغذى الطعام ، فيجمعه الفلاح وبنوه ، ويذهبون به إلى
الأسواق لا إلى الدار ، ويتعamy المسكين عن نظرات بنيه
الجائعة المحرومة ، تحملق في ثمرة جهادهم في لهفة وعجب
بالغين !

وقد تعبت أيدي صغاره بالثمر الشهى الذى لم يتذوقوه ،
وتحدثهم نفوسهم الطفلة بتذوقها ولو بدافع غريزة حب
الاستطلاع ، فيمنعهم أبوهم متكلفا الجذ ، متغافلا عن
الشهوة المختلجة في أعينهم . وفي قلبه حسرة أليمة لولا الإدارة
لا انفجرت ثائرة هدامة ، وفي عينيه دموع حبيسة لولا الحياء
لسالت وانهمرت غزيرة ملتهبة !

يقتلهم الجوع وأمامهم الطعام الشهى ، ثم لا تستشيرنا
حالتهم ، نحن الذين تتكلف الأسى والحزن حين نردد
قول الشاعر :

والعيس في اليبس يقتلها الظلم والماء فوق ظهورها محمول !
لعلنا أجهد الطفل جسمه في مساعدة أبيه ! يسوق
الحمار إلى الحقل عشرات المرات في اليوم ناقلًا السباخ ،
تحت لهب الشمس المحرقة ، وفي قسوة البرد العاتى ، ومتى
جاع مديده الشاحبة النحيلة إلى جيبه ، يتناول لقيمات الذرة
الجافة ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولقد نراه ونرى
الحمار قد أثقله الحمل ، فتثور للحمار ، ولا نرحم الطفل المسكين !
فما أعجب رياءنا ! الحمار أكرم لدينا من الفلاح !
والحيوان ينال من رحمتنا مالا يناله أخونا الإنسان !

في تمتعنا بجمال الريف وجلاله ، وفي إعجابنا بالزرع
الحى النامى ، ننسى هذه المخلوقات الشاحبة الهزيلة ، تتحرك
كالأشباح المترنحة بين الأشجار النامية الخضراء ، وتتعالى
عن النظر إلى تلك الوجوه الصفراء ، وهذه الأجسام
الذليلة المسكينة ، تخدمنا فى صمت أليم ، وتبذل قواها قطرة

قطرة في سبيل تمتع بطوننا الشرهة التي لا تشبع !
والفلاحة في دارها أيضا ؟ ! تصنع الزبد والسمن
والجبن وتربي الطيور وتعتنى بالبيض ، حتى إذا ما حان
موعد سوق القرية ، جمعت هذه الأشياء في حسرة أليلة
ظاهرة ، لأنها تعلم مبلغ اشتهاؤها لهذه الأطعمة ، وليس
للرأة الضعيفة مثل جلد الرجل ومداراته ، وباعتها في
السوق ، واستبدلت بها كمية أوفر من الشحم الرديء ،
والزيت الرخيص ، كما باع زوجها القمح في سبيل مقدار
وافر من الذرة !

وبين تجلد الأب الفلاح ، وجزع الأم الفلاحة ، يقف
الأطفال ذاهلين مبهوتين ، لا يفهمون لماذا يأكل الناس
دونهم ثمرة كد جههم ، ولا تساعدهم عقولهم الطفلة على
فهم هذا الظلم المرهق !

فيا لله ! لشد ما نرهق عقل هذا الطفل ، ولشد ما نظلم
الإنسانية فيه !

هذا هو الفلاح فماذا فعلنا له ؟ ؟ ؟
لقد تعاونا حكومة وأفرادا على التفتن في ظلمه وإرهاقه ،

فهو لا يسلم من سخریتنا وازدرائنا ، وننسى أن هذه اليد
القدرة - كما نسميها ! - قد مهدت لنا سبيل الاستمتاع
بأشهى الخيرات .

أما الحكومة فلا هم لها إلا إرهابه بمختلف الضرائب ،
فهل نقت له المياه ؟ أو عاجته من أمراضه أو أصلحت مسكنه
أو علمت أولاده ؟ اللهم لا شيء من هذا كله ، فساكن
الفلاحين لا تعرف الشمس ولا الهواء . وحرق القرية
تعلوها الأتربة وتماؤها الأقدار ويعمها في الليل الظلام ،
والمياه التي يشربها قدرة ملوثة تحمل له البؤس والشقاء !
والمضحك المبكى أن الحكومات تأخذ من مال المسكين ،
لتمهد لنا معشر سكان المدن ، حياة ناعمة مترفة ! ترصف
الطرق وترشها وتنظفها ، وتفتح المدارس ، وتنير الطرق ،
وتكثر من المستشفيات ، وتتمتع وإيانا على حساب فلاحنا
المسكين !

يحاول أحياناً أن أفكر في مصير ميزانية الدولة ، إذا
حذفنا من أبوابها ضرائب الفلاح ، وأجر نقل محصولات
الفلاح . ورسوم تصدير ما ينتجه الفلاح .

ارحموا الفلاح . . .

إلى القرية يجب أن نتجه ، وفي إصلاحها يجب أن تبذل الجهود ، والحكومة مسئولة أولاً وآخراً عن انحطاط حال القرية ، وعن الشقاء المخيم عليها ، وعن البؤس الذي يعيش فيه المزارعون ، ولئن لم يكن لها يد في جوعهم وحاجتهم ، فعليها تبعة اللوم في قذارة المياه ، وانحطاط المساكن وانتشار القذارة والجهل والأمراض .

يظهر لى أن الحكومات المتعاقبة تتجاهل القرية حتى لتكاد لا تشعر بوجودها ، فليت شعري أية يد رحيمة حازمة ، تلك التى ستوقظ الأمة من تغافلها ، وتنهبها الى واجبها ؟ !

أخيراً لقد عدت من القرية ، دخلتها بأثمة تعسة ، وخرجت منها أشد تعاسة وشقاء ! وعفا الله عن الطبيب ، نسي أن فى الريف ما يشوه جماله ، وأن بجانب فتنته بؤسا يبعث الحزن من مكنه ويشير الأسى من أعماق القلوب !

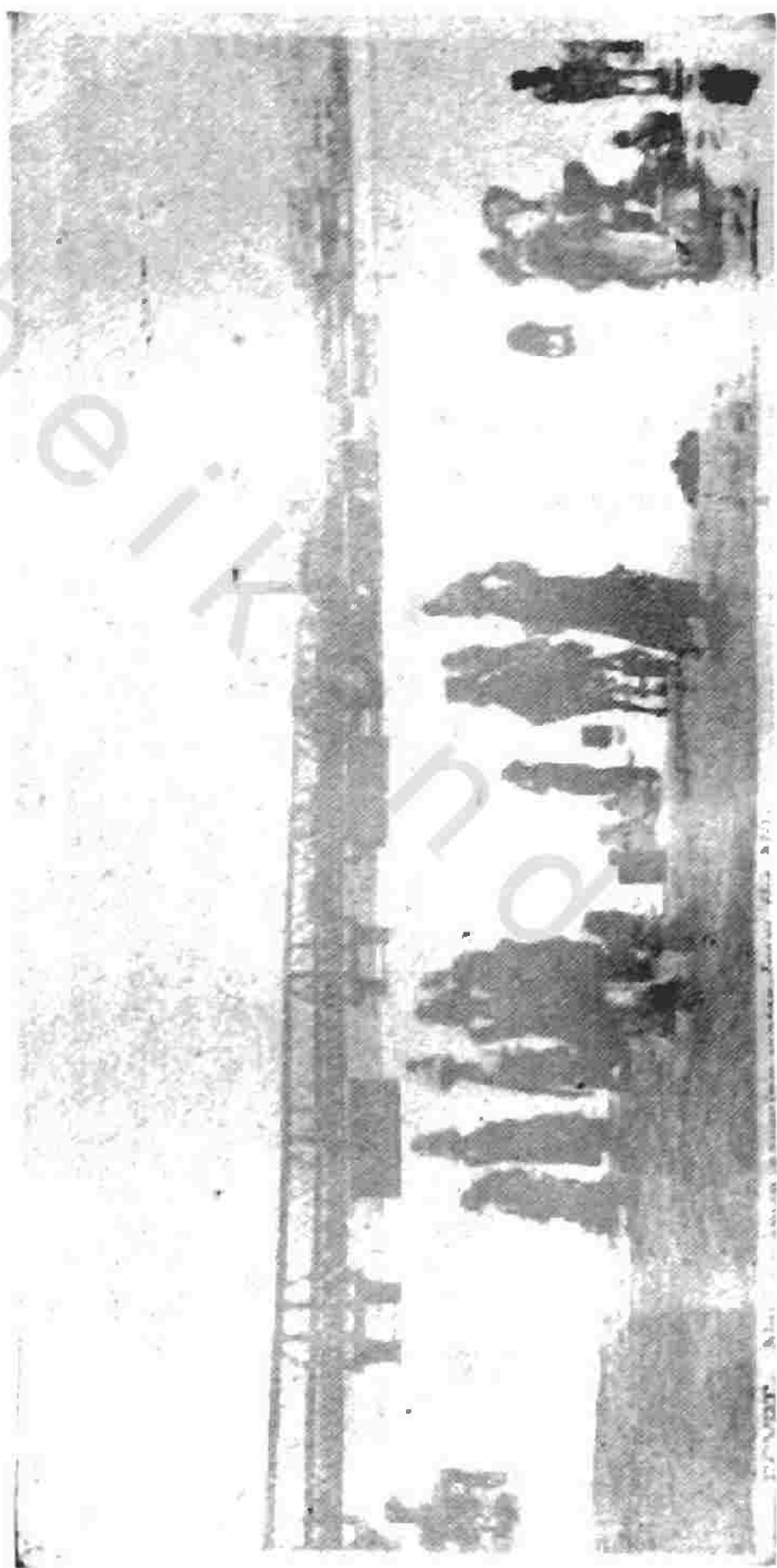


جرعة ماء !!

شعرت بالخجل يشيع في جوانب نفسي حين انتهى إلى
حديث أفراد العائلة التي أضافني في القرية ، يتناقشون في
فناء الدار حول طعامي — كما توهمت — وأخسست بحزن
أليم يهد كياني حين سمعت صديقتي القروية تقول :
لا . . . أتم تقسون على بالحاكم ، أنا أخجل من
تقديم مثل هذا إليها !
ارحموني . . .

وقال أبوها الفلاح الشيخ في صوت منخفض :
أؤكد لكم أنني لن أجرؤ على مواجهتها وفي يدي مثل
ذلك الإيذاء القذر !
كيف تنظر إلينا بعد الآن ؟

وقفزت من القاعة في حزن مجنون ، وتفرست
في وجوههم الشاحبة الذليلة ثم قلت في تأن :



مأصل الحجار

- أتم تخجلونني وتعذوبونني دون أن تشعروا ! كيف
يطيب لي المقام بينكم ، وأتم كما أرى تخجلون من تقديم
طعامكم إلي ! كأنتي ولدت وفي فمي ملعقة من ذهب . .
وفروا على أنفسكم هذه المشقة ، فلست أكذب حين أؤكد
لكم أنني أمقت التألق في الطعام . فكيف به إذا صحبه التكلف ؟
أشعروني بأنني فرد منكم حتى لا أحس بثقل عليكم ، وهذا
وحده لعمرى كرم مبین . . واذكروا دواماً أنني لست ثرية
ولا مترقة !

شيء آخر ، أريد قليلاً من الماء البارد ، فأني متعبة
مكدودة أحس بظماً شديداً .

وصمت وصمتوا : ولم يجرؤ أحدهم على رفع نظره إلي ،
وأخيراً عثر كبيرهم على لسانه فقال وهو يتكلف ابتسامة
كاذبة حزينة :

هذه هي العقدة ، فنحن لا نملك ماء ! وفي هذا تتناقش
لا حول طعامك كما تتوهمين .

قلت وأنا لا أكاد أفهم : ماذا تعنون يا أصحابي ؟ أو
لا تشربون أتم هنا ؟

قال الشيخ : نحن نشرب واخذ الله . ولكنه ماء قدر
ملوث . . . وليس لجسمك مناعة أجسامنا واحتمالها . تلك
الأجسام التي تعودت شرب هذا الماء .

وقالت الصديقة وهي تكاد تبكي : لقد ظلمتني يا أختاه
بهذا الموقف الحرج ! لماذا لم تخطينا قبل قدومك ؟ كنت
على الأقل أذهب إلى بنها وأشتري « نوى المشمش »
لتنقية المياه .

وخانتني قواي ، فمضيت إلى القاعة أتعثر في خطاي
لا تكاد تحملني قدماي ، وارتيمت على الحصير وأنا أردد
في ذهول : في مثل هذا المكان يتوهم الطبيب أنني أستعيد
هدوئي وقواي ؟ يا بؤسهم ويا بؤسى بهم ! ثم تذكرت المثل
الذي ترده أمي دائماً « يا بختها اتبعها ، أينما راحت روح
(اذهب) معها »

لا يجدون ماء صالحا للشرب ؟ ! ارحمهم يا الله !
وتناولت الكوز وأنا لا أشك في أنني سأقذف بمائه في
في جوفي بلا تردد ، لأثبت لهم تواضعي أولاً ، ولأطفيء
ظمئي الملتهب ثانياً . . . ولكن شجاعتى الكاذبة تبخرت حين
نظرت في الماء .

كدت أسألهم : هل تثقون في أن هذا ماء ؟ فليست له تلك الشفافية المغرية التي تطفئ اللهب ، وهذا اللون الأسمر الضارب إلى الحمرة يذكرني بما حفظته وأنا طفلة غريبة في درس « خواص الماء » الماء سائل شفاف لا لون له ولا رائحة .

نسألتهم من أين أتيتم به ؟

قالت الصديقة : من التربة .

من التربة يشربون كما تشرب البهم والدواب وكما تشرب الأرض . وفي التربة يغسلون أو انهم التي فيها يأكلون ، وينظفون الخضر إذا تفضلنا عليهم ونصحناهم بغسل الخضر قبل أكلها !

قطرة من هذه المياه قد تحمل ملايين الجراثيم والديدان يخرج أغلبها مع براز المصابين بالبلهارسيا والانكلستوما - وهم جل أهل القرى باعتراف مصلحة الصحة - فتعوم على سطح الماء ، وتمكث هناك في تحفز وترقب وانتظار ، حتى إذا ما أحست بحرارة أجسام إخواننا الفلاحين وأخواتنا الفلاحات ، التصقت بها تنشد الدفء وتطلب حقها من الحياة ، وفي بطنها تخرق جلدن الضعيف في

طريقها إلى الأمعاء ، حيث تكمن هناك ، تتوالد وتتكاثر .
وتتغذى بدماء الفلاح المسكين بينما لا يجد هو ما يغذيه !
ولا تصدقوا أن قرويا واحدا أو قروية واحدة تستغنى
عن الذهاب إلى التربة ، إلا في النادر القليل .

وهم يعلمون يقينا أن جرعة الماء تحمل إلى أجسامهم
الدم ، ولكن ما حيلتهم وأين المفر ؟ لم يخلق بعد ذلك الإنسان
الذي يموت ظمأ وأمامه ماء ملوث يرفضه . . . وهم قبل كل
هذا بنو إنسان ، يحملهم التشبث بالحياة على قبول آلامها ،
فيجب ألا نخدعنا هذا التشبث منهم عن حقيقة مرة دامية
وهي :

« إن الفلاحين يتشبثون بحياتهم ولا يقدمون على
التخلص منها لأنهم متدينون ، ولأن هذا منشؤه غريزة
الحرص على البقاء وليس حب الحياة لذاتها »

وأي شيء في حياتهم يحب ؟ إن الرجل منهم ليشقى
طيلة يومه وينهك جسمه ، بينما تبخر حرارة الشمس المحرقة
ما أبقتة الأمراض من قطرات قواه . وليته بعد هذا كله
يجوع فقط ، ويسلم من قسوة المحصلين ، وسخرية أهل
المدن ، وظلم المراهبين ، وعار الدين وفتك الدماء ، وعذاب

النظر إلى الدودة وهى تلتهم ثمرة كده وتعبه أمام عينيه ،
وتترك شجيرات القطن الخضراء التى ارتوت بعرقه وقوته ،
عيدانا مجردة ، ينظر لها قلب الفلاح ، وتتخاذل أمامها قواه .
يا رب يا أرحم الراحمين ، إنهم يشقون لنا ويكدون
فى سبيلنا ، ألئن رفضوا العمل وظلوا عاطلين ، أقتسوه حالهم
عما هى عليه الآن ؟ !

حين يدركنا العطف على الفلاحين والراثاء لهم ، نردد
بضع نصائح صحية ، ثم يتنفس كل منا تنفس الارتياح ،
ويصمت بعد أن أدى واجبه (! !) ومن هذه النصائح
« اغسلوا عيون الأطفال دائما بالماء »

وفى القرية شاهدتهم ينفذون النصيحة مخلصين ، ولكن
بماء الترعة . فهم يغسلون تلك العيون المصرية الجميلة التى
تفيض سحرا وحيوية ، بتلك المياه القذرة الملوثة .. فتحمل
تلك المياه بعد ملامستها الأعين ، كل ما فيها من فتنة وجمال ..
ويا لفداحة الألم حين يلمح الإنسان تلك الزهرات الناضرة
البريئة ، يفتك بها الرمذ ، ويفترسها الصديد ، ويذهب
ببها الماء القدر ، وينورها العنى الحزين !

وللأثرية المتصاعدة دواما من طرق القرية التي تجهلها
الحكومات ، يد لا تنكر في مضاعفة الداء . . .
ولذلك أصبحت مصر بلد العميان ، لأن أمتها عن
الفلاح عمياء !

كما اقترست البلهارسيا والإنكلستوما ملايين الأجسام
المصرية القوية القادرة على خدمة مصر ، لأن الحكومة
تضن عليها بجرعة ماء !

حدثت نساء القرية طويلا في جمال أعين أطفالهم الذي
يذهب به الرمد ، فكان جواهن الباكي الحزين : مادمتنا
نرى موضع أقدامنا ، فالشكر لله ! يا لصدق الإيمان ، ولكن
ما أهول هذا الشقاء !

هذه الطفولة الشقية المحرومة ، وتلك الأمومة الذليلة
المعذبة كيف نجرؤ في مصر على تغافلها ؟ !

إن في هذه الأجسام الذليلة ، دليلا على أننا سائرون إلى
نهاية محزنة ، ورحمة الله لمصر يوم تفتح عينيها فتري أعضاءها
العاملين قد فتك بهم الداء ، وسممهم الماء ، وذهب بقوتهم
الجوع والذلة والشقاء !

ويومئذ ما أتعس مصر بأبنائها الفلاحين الأشقياء !

هؤلاء الذين لو منحوا الفرصة ليعيشوا حياة ممكنة ، لأمدوا
مصر بأمتن ثروة وأقوى حياة ! ورحم الله حافظ بك
إبراهيم شاعر الشعب والبؤساء الذى قال :

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا

ونحن نمشى على أرض من الذهب ؟

فيا حافظ ! لقد مرت على وفاتك سنوات ثلاث ، لم
يذكر القوم فيها آمالك وآلامك . وهاهى الأرض توشك
أن تصير كالماحلة الجرداء ، لأن اليد الوحيدة القادرة على
إخراج الذهب ، أضحت هزيلة ضعيفة ، ونحن عنها لاهون
ولو أنصت القوم لسمعوا صوت قيثارتك الحزينة لا يزال
يرن فى أفق الوادى شاحباً ، داوياً باللوعة والأنين .

لقد وجدتها !

هكذا صاحت صديقتى الفلاحة وهى تحمل فى يدها
الحطب وتوقد النار ، لتغلى المياه قبل أن أشربها ، ولمح
أبوها حرارة الظمأ وشهوة الشرب تلعبان فى عيني فغاب
برهة ثم عاد يقدم إلى « بطيخة » أروى بها الظمأ .

يا للسخرية اللاذعة الأليمة .

ذكرت في أم مستبد ، تلك الأحواض المنتشرة في أنحاء المدن ، ليشرب منها الحيوان . وتمنيت لو أن حوضاً واحداً ينتقل إلى القرية ليشرب منه أخونا الفلاح . الإنسان !

بجانبى الآن رسالة موقعة باسم - بنات القرى - تفضلت (الأهرام) فحولتها إلى . وإنها لرسالة حزينة جياشة الأثر الملح في سطورها النارية الملتهبة ، ذلك العذاب الأليم الذى يعجزنا ترفنا عن تخيله . وتبدو كلماتها أمام عيني متراقصة كأنما ترنح ترنح الأشباح .

« هيه يا ابنة الشاطيء ؟ كم نحن بحاجة إلى قلبك فدعيه يتكلم ولا يغلبك الأسى علينا فتسكتى ! لقد لمست حقاً بزيارتك لنا موضع بؤسنا وشقائنا ، قولى لولاة الأمور يا ابنة الشاطيء ، الماء . الماء الماء ؟ فقط هذا ما نطلبه ، قولى لهم وزيدى فى القول إن الماء فى القرى هو أصل البلاء الماء الذى يحمل إلى أجسامنا الداء ، لقد اتابنا منه ما يكفى لقتلنا أفلا يكفى كل هذا الزمن ؟ نعطيكم من دمنا وأرواحنا ما فيه

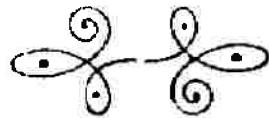
سعادتك ، فهلا تعطونا مقابل ذلك ماء صافياً ؟ يا لله كم
تظلمونا حقاً »

وهاً نذا أصرخ يا أخواتى وأسأل الحكومة هل يعجز
رجالها عن تمهيد الماء الصافى لرعاياها ؟ أنا لا أفهم السبيل
إلى تحقيق هذه الأمنية المتواضعة ، ولكن الذى أفهمه أن
إخواننا الفلاحين يجب أن يعيشوا ، وأن ينالوا جرعة
الماء التى يطلبونها .

لقد قرأت منذ عهد بعيد ، أن لجنة اجتمعت لبحث
مسألة الماء فى القرى ولكنى قليلة الايمان بفائدة اللجان فى
مثل هذه المسألة الحيوية ورأى أن المسألة أخطر من أن
تبت فيها لجنة يجتمع أعضاؤها ساعة وينصرفون على أن
يجتمعوا فى فرصة أخرى ، إنى أريد علاجاً حاسماً شافياً .
إن عمق شعورى بشقاء الفلاحين ، يشل ملكة
التفكير فى دماغى ، ولكنى أفهم أنه قد آن الأوان لأن
تنشأ فى مصر البلد الزراعى المحض ، مصلحة دائمة تدعى
- إصلاح القرية - وأعرف أن الحكومة التى استطاعت
أن تمهد لسكان المدن ماء نظيفاً مرشحاً ، تستطيع أن تفعل
مثل ذلك فى القرى تدريجياً بحيث تبتدى بأشدها ازدحاماً

بالسكان وإلا فهل قدر لهؤلاء المساكين أن يعيشوا إلى
الأبد ، تلك الحياة التي لا نرضاها للحيوان عندنا ؟ اللهم
فارحم .

وبعد فيقيني أن ولاية الأمور في مصر لن يضنوا على
ظامئ بجرعة ماء لو لم يجدها لمات ظمأ أو تناول ماء يحمل
الداء ، ولا على هؤلاء التعساء بنظرة عطف ، لو لم يلمسوها
في وجوهنا لجمدوا وأنكروا الرحمة في قلب الإنسان .



الجمال المشوه الحزين

لعل مضيقتي القروية أحست بكبريائها جريحة مكلومة
حين لمحت مرارة الفشل وألم الخيبة يبدوان في قسوة على
وجهي حتى ليجوز في الرثاء ! فلم يكد يستقر بنا المقام حتى
علاها ذهول واجم حزين ، ثم أشرق وجهها فجأة ودنت
منى وهي تقول في نبرة هادئة :

- أشعر في أعماقي بأنك لم تجدى في الريف الراحة التي
كنت تبغين ، ولكن فيم اليأس ؟ يجب ألا يصرفك أول
الشيء عن آخره ، وإن وراء هذا الشقاء الذي يبدو لك في
القرية ، جمالا فاتنا ما أشك في أنه سيفتكك عن القاهرة
بضجيجها وضوضائها ، وعن الجزيرة بسكونها وجمالها !

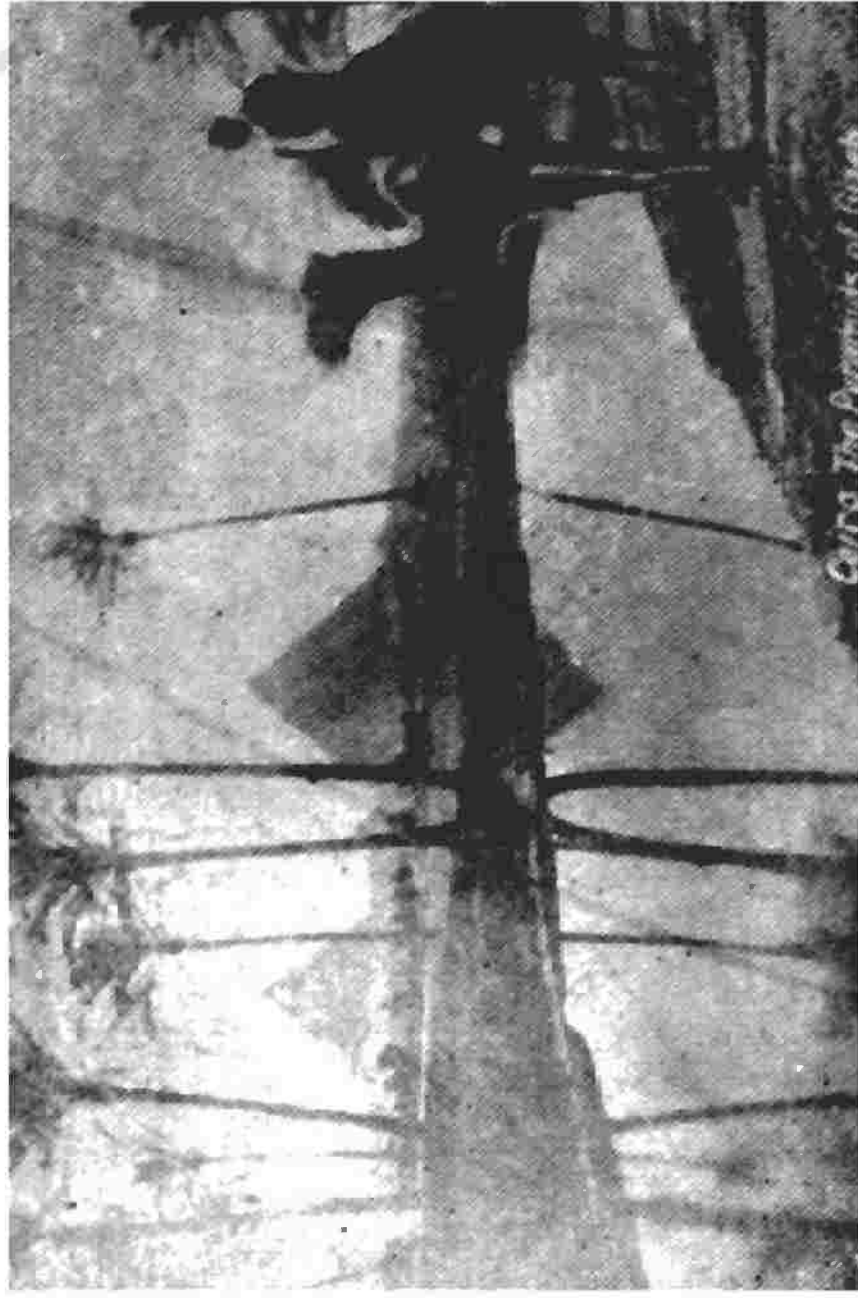
وكانت الصديقة تعلم أنني لم أقصد الريف لأقضى فراغا
ضقت به ذرعا ، أو أعالج مللا شعرت به من حياة تجرى
على وتيرة واحدة ، وإنما هي رغبة الطبيب التي لا ترفض ،
وأمره الذي لا يرد .

وسألتها في رفق حنون ماذا أعددت لنا في القرية

يا أختاه؟ قالت : حين تتأب القرية بعد ليلها المظلم أى
ظلام . وحين تدب الحياة فى كل الكائنات بها ، سيوقظك
حفيف الشجر وخرير الماء وتغريد الطيور التى هى أسعد
طيور العالم جميعا ! وسيد كرك هذا بضجيج العربات والترام
والباعة المتجولين فى القاهرة ! وفى لحظة قصيرة تكونين
قد لبست الثوب القروى الواسع الفضفاض ، متحررة
من قيود أزياء المدينة وما تسلب من وقت وتضيع من
فائدة صحية محققة ، وبين الحقل صباحا نسير ، نستنقذ
بأعيننا وعقولنا وقلوبنا جمال الشروق الرائع ، ونملأ صدورنا
هواء طيبا باردا . . . وتلحين عن كشب كيف تنهض القرية
كلها من الرقاد ، وكيف تبعث من موت يفرضه عليها الطبيعة
والظلام ، وتفتح ذراعيها للنور والهواء . . . تلك تعزية
صادقة . . . هل تنكرين ؟

وأشرق الصباح رائعا . .

كان أجمل شروق شاهدت ، يطلع على أتعس قوم
عرفت ! كانت الأشعة الذهبية الصفراء تتغلغل بين النباتات
الخضراء فتمنحها الدفء والحياة بما يكمن فيها من سحر ،



أفراح مصر ورغبتها ونيلها
الخلود والبروعة والحياة في

وتلمس سطح الحقول بعصاها السحرية ، فتحدث فيه رعدة حية ، تبدو في موجات متتابعة متلاحقة ، تذرع الحقول جميعا في حنان بالغ عجيب ، بينما تلتوى القنوات بين الحقول وتنساب ، في خرير متسق هادئ ، له نوع من الموسيقى الغامضة الساحرة !

إن مجرد التفكير في متاعب النفس وآلام القلب ، نوع من الجناية والامتهان لقدسية ذلك الجمال ، وفيه انتهاك لحرمة تلك الفتنة الرائعة !!

ولكني نهضت - ولا أدري كيف وفقت - إلى التحرر من أثر ذلك السحر والتفت حوالى أتأمل وأرى عجبا ... بجانب هذه الأشجار الهيفاء الحية المثقلة بأحمالها ، أجسام نحيلة شاحبة مثقلة بالآلام والمتاعب والأمراض ، تبدو كأنما تدب إلى القبر ، وتهدى إلى حياتنا العاجلة آخر أنفاسها .

وفي جوار هذه الحقول التى تنبض بالقوة والحياة والشباب ، برك راكدة ، تحمل في ثناياها وعلى سطحها عوامل القضاء على فلاحنا المسكين ، وتكاد أبخرتها العفنة

تسبب الهواء الذى يستنشقه . وتطغى على عطر الرياحين ،
وعرف الورود ، وشذا الأزهار .

وهذه الطيور التى سعدت بموسم الحصاد ، وأحست
بالربيع وهو شباب الدنيا ، يبعث فى أجسامها النشاط
وشباب الحياة ، تملأ الفضاء بتغريدها الحنون ، كأنما هى فرقة
موسيقية أتحدت نغماتها واختلفت أصواتها ، يكاد الإنسان
ينسى ما فى صوتها من حنين وحنان ، بتلك الجيوش من
البعوض والذباب ، التى تطن فى أذنه بشكل مزعج مخيف ،
كأنما تذكره بالحقيقة المرة القاسية التى اعترف بها الدكتور
محمد حلمى السعيد مدرس علم الصحة فى كلية الطب فى قوله :
« لقد أصبحت الملاريا خطرا داهما على حياة الكثيرين
من أهل جلدتنا ، حيث وجد فى صيف العام الماضى أن
٦٥ ٪ من سكان بعض القرى فى شمال الدلتا مصابون به ،
وهو لعمرى رقم هائل ينذر بسوء العاقبة إذا لم تضاعف
الجهود فى استئصال هذا المرض الذى اكتسح قرى بأكملها
فى أواسط أفريقيا ، فأصبحت قاعا صفصفا بعد أن كانت
أهلة بالسكان »

وأما المياه ذات الخريف الهادىء الحنون ، فيشوهها

ما تحمل من جثث الحيوانات وبقايا القاذورات ، بينما
يتكاثر على حواف الترع ، جموع الفلاحات زرافات ووحدا
يغسلن الثياب المهلهلة ، وينظفن الأوعية النحاسية التي يعلوها
الصدأ ، ويتجملن بعمل - التواليت - بمياه التربة ، ملبيات
طبيعة المرأة التي لا تنثر بزمان ولا مكان ، ويملأن الجرار ،
ويتركن في نفس الرائي أثرا من الحزن عليهن عميق القرار .
بقي من جمال الريف ، شمس الساطعة التي كثيرا ما يحدثنا
عن فائدتها الأطباء ، وهوأوه الربح الطلق ، الذي لا تحجبه
المباني المترصة العالية الذاهبة في السماء ، وأعترف بأن الفلاح
ينال من هذين المنبعين ، شيئا من القوة ، يعينه على مقاومة
شقاء معيشته ، واحتمال ما يفتك بجسده من أمراض ، ولكن
في آخر النهار ، حينما يغادر الفلاح الطبيعة الحانية عليه ،
الرفيقة به ، ويأوى ودوابه جميعا إلى تلك الأبنية القذرة
المظلمة ، التي لا يجوز لنا أن نطلق عليها اسم المسكن أو
المأوى ، ضاع أكثر ما اكتسبه من أثر الشمس والهواء
وتبخرت تلك الكمية الضئيلة من الصحة التي أفادته إياها
الشمس ، في الأبنية الطينية الواطية المسقفة بالقش والغاب
والتي لا يرتفع أكثرها عن سطح الأرض إلا قليلا ، ولا

تعرف الشمس ولا الهواء ، سبيلا إلى داخلها ، اللهم إلا شعاعا ضئيلا من النور ، ينفذ من كوة صغيرة في الجدار ، ليلقي الضوء على ما يخفى الجدار من تعاسة وعوز وشقاء ، يحتملها الفلاح صابرا قانعا ، لا يئن ولا يجأر بالشكوى والاحتجاج ، بينما تسير بنا الأيام إلى مستقبل محزن رغم ما يكتنفه من غموض ، وإلى نهاية أليمة إذا ظل ولالة الأمور يتجاهلون وجود الفلاح ، ذلك الاسم الذي يجب أن يصبح رمزا للشقاء والحرمان ، لا كناية عن بقرة حلوب لا يفرغ اللبن من ضرعها ، تملأ خزانة الدولة مالا ، وأسواقها خيرات وغذاء شهيا طيبا !

إن لا أكثر أغنيائنا وحكامنا - إن لم يكن لهم كلهم - مصالح تربطهم بالريف ، والفلاح المسكين هو اليد الوحيدة التي تحيل أراضيهم الزراعية بإذن الله ذهابا نضارا يتدفق في خزائهم ويتيح لهم ما هم فيه من نعمة ورفاهة عيش ، فإذا أثار دهشة أحدنا ، أن الفلاح يشقى في أمة زراعية ، يقوم على أمرها كبار الملاك الزراعيين ، وإذا تساءل الإنسان كيف لا يكون هذا الاتصال سببا في تعرف الأغنياء بشقوة الفلاحين البؤساء ، وبالتالي سببا في سعي الأغنياء

في تهيئة حياة صالحة لهم ، إذا دهش المرء فإن دهشته تزول ، حين يقرأ تلك الحقيقة الهائلة الصادقة ، التي ذكرها اللواء رسل باشا حكامدار العاصمة : « أتمنى أن يتعلق الشباب المصرى ببلاده تعلقاً شديداً ، ولن يكون ذلك إلا بحب الريف ، وأنت تجد الشبان الموسرين لا يعرفون موقع أطيانهم ، ولم يذهبوا قط إلى عزبهم ، ويجهلون اسم الخولى الذى يحرس أموالهم »

وهكذا نحن دائماً ، نلهو عما يحيط بنا من أخطار ، ونجهل عن مصر وأهلها ، حقائق يعرفها غير المصريين ، ولا نزال فى لهونا حتى يتحدث الأجانب بحمقنا وجهلنا وضعفنا ، وهذا الحديث هو - مع الأسف الشديد - إنذار من الحياة يلوح لنا ونحن فى رقادنا مستسلمين لأحلام الخيال ، كما تسوق الطبيعة الرعد والبرق ، إنذاراً بالعاصفة. فهل آن لنا أن نستيقظ ؟ من يدري !!



وراء الستار

كان عجيباً من صديقتي القروية أن تلح في إخفاء نقودي وحلي طالما أنا في القرية ، وأن تنكر على خروجي إلى الطريق وفي معصمي ساعتى ذات السوار الذهبى . وفى أصبعى الخاتم الماسى الذى لا يفارقه ! وكلها هممت بالسؤال والاحتجاج اهتمت من إلحاحى بالصمت والمراوغة . وأشارت إلى أن أسكت فأمثل لأمرها .

سألتنى ذات مساء : أين تضعين حليك ونقودك ونحن نيام ؟ .

- أين ؟ فى يدي يا أختى وعلى هذا الكرسي فى جوارى ، لا زلت أعجب من اهتمامك بإخفائهما ألا تتكلمين ؟

- كان على أن أتكلم ، لولا أنى أحب ألا أجمعك فى مابقى لك من هدوء الريف ! لقد تكشفت لك زيارتك لنا عن شقاء شعب عليك حياتك وسلبك راحة البال وصدق

اليقين . أفتحسبن أنى أجرؤ على إزاحة الستار أمام عينيك
عما خفى عليك من شقاء الريف ؟

- ولكنك بكتمانك تثيرين فى نفسى ألماً عاصفاً غلاباً
لا طاقة لى به !

- يا أختاه ! إنك تلهجين فى القرية أقسى أنواع الفقر
والعوز والشقاء، ولكن لو قدر لك أنك تتغلغلى فى صميم القرية:
ولو كشف لك الحجاب عن قلوب القرويين، لآنك كشف لك
ستار الشقاء عن مشهد أفظع هولاً ! ولآملك أن يستبد
بالقرويين ظلم جرى، كأن لم يكف ما هم فيه من فقر وبؤس !
إن فى القرية لصوصاً يا صديقتى ! أنا أعرفهم . وكل فرد
فى القرية يعرفهم ، ولكننا لا نملك حيالهم إلا الصمت بل
والرضاء .

- ما أفظع هذا الرضاء منكم ولـكم كما أعلم نفوس أئية !
- إنها لا تزال أئية يا أختاه ! وهذا الرضاء منا ليس
خضوعاً وذلة اصغر فى نفوسنا ، ولكننه رضاء من يعلمون
حقيقة ظلم البشر ، أو لست القائلة فى قصيدتك « وحي
الشاطيء » ؟

يلاقى الهوان فيرضى به . رضاء العليم بظلم البشر ؟ !
إن زعيم العصاة تربطه بالعمدة صلة القرابة . وهو
يتحكم فينا معتمداً على هذه الصلة . يسرق ويهاجم ثم
لا يسأل عما يفعل لن أنسى يا أختاه ليلة هاجم
للصوص فيها خالتي ، وهى كما تعرفين تتجر فى الطيور
وتمتلك بعض المال وتحيا وحيدة بعد وفاة وحيدها . لقد
كنت حسنة الظن بالناس إلى حد بعيد . نشأت فى الريف
فألفت بساطته وظلت بعيدة عن دوافع الشر التى تقتحم نفس
الإنسان من أضعف ناحية فيه وهى حب المال . فتقذف
به وراء الإنسانية وتحيل ضميره قطعة من الحلوى تلتهم
فى آخر النهار ! وكنت أسمع الهمس يكثر فى مغامرات
لصوص القرية ، وأنصت إلى ما يتحدث به الناس عن
قسوتهم واستهتارهم ، لكنى ما فتئت أتوهم فيها الإسراف
والمبالغة ، حتى ذلك اليوم المشئوم ! لقد هاجمها لصوص
أربعة ملثمون فى منتصف الليل . وهمت بالنهوض من
فراشها فخذلتها قواها وارتمت على الأرض شبه ذاهلة !
بقيت لها عيناهما للشهيدىما وحشية البشر وقسوة الإنسان
على أخيه الإنسان ! وفى توحش عجيب سلبوها كل ما تملك

من حبوب ومن مال . وتركوا لها ذل الفقر وقسوة المرض
وأثر الخوف الهائل !

- وبعد ؟

- وبعد فلا يزال اللصوص يسطون ويسرقون . ولولا
اهتمام رجال كل أسرة بحراسة الدار ليلا بالتناوب لكانت
المصيبة أعم !

- وعمدتكم نائم في داره مطمئن لا تقلقه أشباح شقاءكم
وأصوات ضحاياكم ولا يردعه وجود الحكام والقضاء
واحتمال ثورة كبار المزارعين ؟

- وما العمدة ياسيدتى ؟ إنه الحاكم المطلق التصرف في
القرية . ونحن صغار المزارعين خدمه المسخرون ! أما
كبار الملاك فهو يعرف كيف يرضيهم بأساليب نعرفها نحن ،
لأنها على حساب قوتنا وقوتنا !

وأغمضت عيني ليؤرقني سهد طويل . وبدأتلى متاعب
القرويين كأنها سلسلة آلام لا نهاية لها ! لئن استطاع الفلاح
أن يحمل أثقال فقره وعوزة بما وهب من قناعة وصبر .
فبأى ثمن يحمل وطأة الظلم وهو الكريم النفس الذى يأبى
الضمير ؟

فى عهد الإقطاع . وفى صميم العصور المظلمة الوسطى .
كان الفلاح خادما للأمير المقاطعة . يزرع له الأرض
ويحصل المحصول . ثم هو مكلف بأن يعصر كرومه فى
معصرة السيد ويطحن حبوبه عنده . وعلى السيد واجب
واحد ، هو حماية مقاطعته من الأعداء والفاحين .

والآن بعد أن اندك صرح الاستبداد بمعاول المصلحين .
وبعد أن أعلنت حقوق الإنسان وأصبحت سلطة الحاكم
مستمدة من الشعب لا من الحق الإلهى المزعوم . يقوم
العمدة غالبا بتمثيل دور السيد فى القرية . والفلاح المسكين
لا يجرؤ على شكوى ولا يقوى على احتجاج .

إن دودة القطن مثلا ، فى سبيل تشبثها بالحياة ، لا تميز
بين حقل العمدة وحقل الفلاح المسكين ، بل تمضى فى
طريقها وسط الحقول لتلتهم النبات النامى الناضر ، دون
أن تمنعها عن الحقل الأول سطوة صاحبه وقوة بأسه ،
ودون أن يصرفها عن حقل الثانى شقاؤه وجوعه وضعفه .
وفى أراضى العمدة يجتمع آلاف القرويين . يحاربون
الدودة وينزعون الأوراق المصابة . وقد نشط إلى جمعهم
خفراء القرية . يمر كل خفير فى منطقة معينة وتكفى نظرة

قاسية مهددة من عينيه ، لتزرع الفلاح المسكين من حقله الصغير الذى ينتظر محصوله ليسدد ديونه المرهقة . وليحصل على ما يقيم أود أولاده الجوع . فيترك حقله لترعى الدودة فيه دون رقيب ، إلى حقل العمدة ليحمى ثروته من مجرد النقصان ! والأجر المعروف المصطلح عليه فى القرى هو رضا العمدة سيد القرية !

وفى مناوبات الري ، حين يهجر الفلاحون دورهم ليلا . أحوج ما يكونون إلى بعض الراحة من شقاء الفقر والجهاد ، ويسهرون فى حقولهم على حواف الترع منتظرين المياه ، كم يطول بهم الانتظار ! إن المياه محرمة على أراضيهم قبل أن تمتلئ ، أراضى العمدة وكبار الملاك شبعاً ورياً وحتى تصيب التخممة فتلفظ ببقايا الماء إلى أراضى الفلاحين التعساء ! وفى موسم الحصاد ، يخرج الرجل فى الصباح الباكر حاملاً منجله ، ومودعا زوجته لتلحق به فى الحقل . ويسير فى الطريق ذاهلاً يحلم بيوم يبيع فيه القمح ويشترى رطل لحم لأولاده المحرومين الذين طال تشوقهم إلى اللحم ، وثوباً من القماش لزوجته التى أذلت رجولته وكبرياءه بثيابها المهلهلة البالية ، ولا يزال يحلم حتى يوقظه صوت الخفير ،

ينزعه من أحلامه إلى الحقيقة المرة ، ويذهب به إلى حقول
العمدة حيث ينتظره القمح النامي ! والويل له إن أبدى
ألما أو تذمرا . .

ارحموا الفلاح !

إن حياته أصبحت جحيمًا . طال عليه العهد وهو ينتظر
الإصلاح البطيء . . وطال به الانتظار حتى ضاع منه الأمل
الضئيل الذى كان ينير دجته حياته الخالصة السوداء . ولم
يبق له إلا شقاء الفقر ومرارة اليأس وذل الاستبداد !
هناك بعيدا ! فى القرى التى نجهل شقاءها وشقاء من
فيها . يفرض العمدة نظاما هو أعجوبة الأنظمة فى القرن
العشرين . أى بعد مرور ثلاثة قرون على صرخة المصلحين
أمثال موليير ومونتسكيو وفولتير ، بأن الحاكم الصالح هو
خادم الشعب !

إن العمدة لا تجرى عليه نظرية فصل السلطات التى
تجرى على الوزراء وكبار الحكام ، ففي يده سلطة الاتهام
والحكم والتنفيذ . والحكومة لا تعلم عن هذا شيئا كثيرا .
لأن صغار القرويين لا يجرؤون على الشكوى والصراخ

خشية الاضطهاد والإهانة . بينما لا يجد كبار المزارعين ما يشكون منه لأن العمدة يكلف الفلاحين الأجلاف بدفع ثمن سكوت السادة الأغنياء . وفي ذلك يقول «الفلاح المسكين» في رسالته إلى بالاهرام الغراء ١٤ - ٨ - ٩٣٥ « لو وقف شقاء الفلاح عند هذا الحد - فداحة الضرائب - لكان الأمر أسهل مما تظن الحكومة وتنادى الفلاح بعالى صوته . الفلاح الصغير في حاجة ملحة إلى حمايته من اضطهاد حضرات العمد ومشايخ وأعيان القرى . فدافعوا أجور الخفر هم الفلاحون الفقراء . ورجال تنقية دودة القطن في زراعات العمد والأعيان هم الفلاحون الفقراء . وواضعو فوانيس الإنارة أمام منازلهم في القرى هم الفلاحون الذين لا يتمكنون من إنارة مساكنهم »

« تذكر التمثيل والجمعيات التي يتبرع حضرات العمد والأعيان بتوزيعها ، تحصل أثمانها من فقراء الفلاحين . وتطهير مساقي الأعيان وتسهيل الطرق لسياراتهم في داخل قراهم ، وفعلة مبانئهم ، وخدمة منازلهم ومزارعهم هم الفلاحون البؤساء التعساء . الذين إن اشتكوا أهينوا وإن صرخوا عذبوا »

هذه الصرخة الداوية التي يرسلها « الفلاح المسكين » من أعماقه يجب أن يكون لها صدى في قلوبنا وفي عملنا . شقاء الفلاح وصل إلى درجة لم يعد ينفع معها علاج الكلام . والفلاح نفسه أصبح لا يطمئن إلى سياسة الوعود الخلابنة التي يلوح بها المصلحون . والحاجة ملحة إلى علاج عملي عاجل .

إن التمثيل الحكومي معدوم في القرية كأنما هي كم مهممل على الهامش ، وكأن مصر ليست « بلدا زراعية قبل كل شيء » . ولا يزال أهم قوام معيشتها مرتكزا على الزراعة . فهي لمصر أهم بكثير منها لإيطاليا مثلا « وانعدام التمثيل الحكومي ، والإشراف الفعلي على عمل العمدة ، يفسح المجال لعبث صغار النفوس منهم ، واستبدادهم بصغار المزارعين دون خشية أو رقيب ، والمثل العامي يقول « المال السايب يعلم الناس السرقة » . وبين تغافل حكام المراكز ، واستبداد العمدة ، يلاقى الفلاح صنوفا من الهوان والذل والشقاء ، لم يعد في إمكانه تحملها ، وليس من العدل الإغضاء عنها . هذا « الفلاح المسكين » أتاحت له « الأهرام » الغراء فرصة الاحتجاج . فأرسلها من قلبه صرخة أليمة حاقلة

بالمرارة والشقاء ! ترى كم من صرخة تقف في حناجر غيره
من القرويين ، ولا تجد مجالا للانطلاق ، لأن صاحبها
لا يملك ثمن طابع بريد يحمل شكواه إلى منبر الأهرام ،
فتعذبه وتضنيه ؟

لست أطلب تحقيقاً حكومياً في ذلك الموضوع . لأنى
موقنة بصحة كل ما جاء في خطاب « الفلاح المسكين » بل
إنى لأعلم يقيناً أن ما خفى علينا من شقاء الريفيين أكثر .
والعمدة لا يعدم مئات من الشهود ، يبيعون ضمائرهم
برضاء العمدة . ويلفقون التهم على الأبرياء فراراً من قسوة
الاضطهاد . أجل لست أطلب تحقيقاً ، ولكنى أتساءل هل
تعجز الحكومة عن الإشراف على القرى ؟ إن فى المراكز
وعواصم المديرية آلاف من الموظفين ، يعملون أعمالاً
تافهة . ويشغلون وظائف لا تتناسب أسماءها ومرتباتها مع
ما يقومون به من عمل فعلى ، وقد آن لهم أن يفهموا أن
الوظائف كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام
لوزارة الزراعة . « ليست أرائك للجلوس عليها . ولكنها
مراكز محفوفة بالتبعات » فماذا لو أشغلت الحكومة بعض
هؤلاء الموظفين فى حماية رعاياها القرويين ؟ وما الذى يمنع

من أن يختص كل واحد منهم بوضع قري . يتغلغل في دور
صغار مزارعيها . ويستمع إلى صرخات الأطفال . ويصغي
إلى شكوى النساء . ويكشف الستار عما تخفي صدور الرجال
من ألم مكبوت وثورة مكبوحه ؟ وعما يجري في الريف
من مهازل لا تليق بعصر يسمونه عصر الحرية والنور ؟
ارحموا الفلاح !

لا بل ارحمونا نحن ! ارحموا الأجيال القادمة من هول
المستقبل إذا ظل الفلاح كما هو كتلة ذليلة مهملة ، ارحموا
أبناءنا وأحفادنا واذكروا واجبتنا نحوهم .
لقد تستطيع الحكومة أن تلتمس لنفسها بعض العذر
في بطل الإصلاح . ولكنها لن تجد عذراً في التقصير عن
حماية مواطنيها النعساء من استبداد بعض الأفراد . ولا بد
للفلاح من قانون حازم يحميه من الظلم ومن القسوة
والاضطهاد !

إن مجرد التأمل في نظام العمدية ، يكفي لدلالة على
استبداد شهوة الحكم ببعض الأفراد . فالعمدة لا يقبض
مرتباً ولا ينال على مركزه أجراً ، وكل ما يكسبه رسمياً هو
إعفاء بعض أطيانه من الضرائب ، وإعفاء أولاده من واجب

القيام بالخدمة العسكرية - وتلك لعمرى مهزلة ! - فلو كان
العمد يدركون مسئولية المركز حق الإدراك ، لما استهاتوا
فى سبيل العمدية ، ولما استفحلت العداوة بين كبار الأسر
فى الريف من أجل العمدية ! هل يمكن تعليل تلك الاستهاتة
بغير شهوة السلطة ، وبغير الأرباح التى يجنيها العمدة ظلماً
وعدواناً من استغلال صغار المزارعين ؟! إن القن البخس
الذى يناله العمدة بالإعفاء من بعض الواجبات ، لا يغرى
بتحمل أعباء المسئولية ، لولا أن الكثيرين لا يفهمون أن
للمركز أعباء وتبعات ولا يجعلون منه إلا أداة تحكم ورياسة
واستبداد واستغلال .

الضرورة قاسية ملحة ، وقلم قضايا الحكومة لن يكلف
الخزينة شيئاً فى سبيل القيام بوضع القانون المنشود . وقد
آن لحضرات العمدة أن يفهموا أنهم وصغار المزارعين
سواء أمام الحق والعدل ، وأن أكرم الأفراد على الوطن ،
أكثرهم قياماً بواجبه ، وهم لن يفهموا ذلك إلا إذا حال
بين الفلاح وبين استبدادهم وتمسكهم قانون حازم . يوقف
كل فرد عند حده لا يتعداه . ويحمى الفلاح المسكين من
قسوة الظلم وفاحش الاستغلال .

في قبور الأسياء المجاهدين

آن لنا أن نفتش في القرى المهملة عن قبور الأحياء
المجاهدين ، وأن نزيح عنها الأغشية الزائفة لنرى الجثث
الحية ، يقتلها الجوع وتنهشها الأمراض .

قال لي البعض : لم تدعى في قاموس البؤس كلمة واحدة
إلا استعنت بها على وصف شقاء الفلاح ، أما آن لك أن
تهدئي ؟ ! فأذهلني ذلك التعبير ومضيت أفكر . ذكرت أنني
حين مررت في طرقات القرية ، وحين تغلغلت في دورها
القدرة المظلمة . وأنصت بقلبي إلى الأناث اللاهثة الضعيفة
التي تذيب القلب وتضنيه ، وحين ازدحمت الآلام في دماغي
تستبد به وتريد انفجاراً ، لم أكن أفكر في أن للبؤس
قاموساً . وأن الكلمات التي نعبّر بها عن الألم قد تنفذ إذا
طالت بالإنسان الشكوى وطال منه الحديث ، والآن أتساءل
أحقاً قد تنفذ الكلمات ؟ أتراني قد أقف مكتوفة اليدين
صامتة اللسان وأنا أرى أمواج البؤس تطغى على الفلاح

۴۹۲ :



الشقى المجاهد فتغمره وتغمره حتى يختنق ، ثم أقتش فى دماغى
فلا أجد كلمات جديدة تصف بؤسه ، ولا أستطيع أن أرسلها
من أعماق صرخة حزينة تهيب بالناس أن أنقذوا الفلاح
فى صميمى ، أعتقد أن نظرة شاردة عجلى ، يلقيها الإنسان
عرضاً على فلاح مهدم يدب على الأرض وكأنه يخطو إلى
القبر ، ويعمل فى الحقل وكأنه يذيب قواه وقطرات حياته
فى الأرض التى يحرقها ، نظرة واحدة تكفى لأن تحمل
إلى قلوبنا ، حديثاً بليغاً عن الشقاء العجيب .

لو أن طائفة المزارعين كانت أقلية ضئيلة لاستطعت
أن أخنق فى صدرى لفة عطفى عليهم ، ولقلت فى شجاعة
متكلفة : لا بأس ، فئة قليلة تشقى لتسعد الأكرين ، إذا
كانت سعادة المجموع لا تأتى إلا بشقاء البعض وتضحية البعض
وإذا كنا نحن أنانيين بطبيعتنا ، ففيم يا قلب التألم وفيم الآتين ؟
ولكن القرويين هم الأغلبية الساحقة فى مصر الزراعية .
بضعة ملايين تشقى وتتخبط فى ظلمات مرضها وعوزها
لتسعد الآخرين ، فلو أفناها الشقاء كان فى فنائها هلاكنا
جميعاً .

« شقاء الفلاحين فادح ، وإصلاحه يقتضى جهوداً

جبارة ، وليس من المستطاع أن نصلح قرى كل ما فيها يقتضى إصلاحا « هكذا يقولون دائما ، ولكن هل تدعو فداحة الشقاء إلى الصمت والسكون ؟ وهل كون كل ما فى القرية يقتضى إصلاحا ، يقعدنا عن الإصلاح ؟ إذا كنا فى مصر نفهم ذلك ونهضمه فى سهولة ويسر ، فالناس جميعا يعتقدون أن فداحة الشقاء تدعو إلى الإسراع فى الإصلاح ، وأن جهودنا يجب أن تتناسب مع قسوة الواقع ، وهكذا يفهم غيرنا ، وهكذا علينا أساتذة المنطق .

أست أخشى أن يتهمنى البعض بأنى خيالية ، وما أسهل اتهم الفتيات بذلك ! - حين أتحدى جميع المصريين متسائلة هل فىنا من لا يعترف بشقاء الفلاح ؟ وهل من فرد ينكر أن الفلاحين غالبا ، هم أشقى الناس وأشدّهم عوزا ؟ قد أفهم أن يتردد البعض فى وجوب الإصلاح ، وقد أفهم أيضا أن يظن البعض أن الفلاح لا تزال لديه قوة الاحتمال ، ولكنى لا أصدق أن إنسانا يقول - وهو يعنى ما يقول - إن الفلاح (أحسن من غيره !)

نحن إذن مسلمون جميعا بشقاء الفلاح ، ولكن هذا

هذا التسليم معناه في بلادنا أن يسخر الفلاحون في أعمال
مضنية مرهقة ، والأجر هو سلسلة من الشتائم القذرة
الألوية ، يقذفها أصغر موظف منتدب المراقبة ، في وجه
الفلاح (الجلف الحمار ابن الحمار .)

عند ما تمتلئ منابع النيل العليا بالماء ، ويدفعها التيار
فتسير في طريقها إلى البحر الأبيض ، قوية صاخبة دافقة ،
حاملة بين أمواجها الحياة والموت ، وحين تمضي إلينا تائرا
غلابة ، تطغى أحيانا على الشواطئ ، وتغرق الأراضي
المنخفضة بسيل من المياه وكأنما تقول للفلاح الحزين : إذا
كنت تريدني سماءك التي تمدك بالحياة بإذن الله جل شأنه
فلا تنكر أن يكون لي مع أنوارى سحاب ورعد وبرق !!
وعلى جسور النيل التائر يحتشد الفلاحون
الفلاحون المحرومون الأشقياء ، ليصدوا هجوم المياه
بأجسامهم الناحلة المنهوكة المريضة ، وليعملوا طول النهار
تحت رحمة المندوبين السادة وفي قسوة الظهيرة ! ينتزع
الرجل من حقله ومن بين أولاده ، ويرحل إلى مكان بعيد
لتتم المهزلة ! ليعمل مسخرا بينما تعمل الآفات والمياه الشائنة

فى أرضه الصغيرة التى لا يكاد ثمن محصولها يرحمه من قسوة
المحصلين وظلم المرابين ! وبينما تخط دودة القطن فى حقله
سطور ذله وعاره وخرابه !

يارحمة الله ! الفلاح الشقى المجاهد ، الذى يؤدى واجباته
نحو الوطن كاملة ، والذى لا يظفر بعد جهاده وتعبه بمال
يدفعه للضرائب المرهقة ، الفلاح الذى تلتهم الملايا
والبلهارسيا والانكلستوما والبلاجرا والأنيميا قواه ،
وتهد كيانه هداً ، ثم يسكن إلى آلامه ويحملها صابراً صامتاً
لا يئن ولا يتوجع ، فيعانى الموت البطىء حتى لا يكلفه ذهابه
إلى مستشفى المدينة ترك أرضه التى لا تكاد نمده بالكسرة
يتبلغ بها والسترة يستر بها عورته ، هذا الفلاح ، ينزع قهراً
واعتسافاً إلى جسور النيل فى أى مكان ليعمل مجاناً ؟
وليحمى ثروتنا الزراعية من النقصان ولو كلفه ذلك حياته !
ومهزلة المهازل أن ينتدب الموظف المنعم لمراقبة
تسخير الفلاحين التعساء فيمنح مكافأة إضافية فوق مرتبه
كأنما كان فى مكتبة بالقاهرة عاطلاً فهو يمنح مرتباً إضافياً
حين يعمل ، مع اعتبار مرتبه الأصلى ميراثاً أورثه إياه
آباؤه أو أجداده من قبل ! أو كأنما ننسى أن الموظف الذى

يندب لعملٍ ما . لا يحق له أن يأخذ مليها واحداً فوق مرتبه الأصلي ، لأنه لا يعمل عمليين في وقت واحد . . . لقد ترك عملاً وندب لعمل آخر فكيف يكافأ على العمل الواحد مرتين ؟ .

المال لمثل هذه المكافآت الظالمة موجود ومتوفر والحمد لله ، وإن استنفد ففى الاحتياطى العام ما يسد الفراغ ويملا الجيوب المنتفخة الأنيفة ، ولكن المال لإصلاح القرى ، المال الذى قال «الدكتور أبولس بولس» إنه الداء والدواء ، هذا المال من نوع آخر . . . من عملة أخرى لم نهتد إليها بعد ولا محل لها من خزانة المصروفات فى مصر !

مائة ألف من الجنيهات أنفقت كاملة فى هذا العام لمقاومة الفيضان من وزارة الأشغال ، وما يقرب من نصف هذا المبلغ فى وزارة الداخلية . وما كان لنا أن نشكو هذا الإسراف ، لو لم تقترن به حقيقة فادحة وهى أن هذا المبلغ الضخم ينفق فى فيضان يقاومه الفلاحون الفقراء دون أجر مطلقاً !

وأعجب من هذا ، أن يحدث ذلك فى وقت يكاد أكثر الفلاحين يموتون فيه جوعاً وأن نطلب نصف هذا المبلغ

لا نقاذ آلاف من المزارعين الذين هم ثروة الأمة ، فتصاب
الحزينة فجأة بصداع هائل وشلل في اليد ومرض اليرهاق
والعسر !

معالي وزير المالية أجدر الناس بالعطف على تلك الفئة
الضالة ، وأعتقد يقيناً أننا لا نطلب محالاً حين نسأل أن
يكون الفلاح آخر شخص في مصر يفكر في تسخير
وتشغيله دون أجر ! حسبه شقاؤه ومرضه وعوزة ! حسبه
الحياة الوضيعة المنحطة التي يتخبط في ظلامها ! حسبه
المذلة والاحتقار وكونه لا يحيا كإنسان !

مسألة عدم مكافأة الموظفين المراقبين حين الفيضان
لا يعدو أثرها حرمان الموظف من صيف ممتع يقضيه في
أوروبا وتحت ظلال الأرز في جبال لبنان الساحرة ، أو
تغيير السيارة طراز سنة ١٩٣٠ بأخرى رشيقة « موديل
١٩٣٥ ! » بينما مسألة عدم منح الأجور للفلاحين ، هي
مسألة حياة وموت ! له ولنا وللأمة جميعاً !

آن لنا أن ننشئ قبور الأحياء المجاهدين !
يترك الموظف عمله الأصلي ، ويندب لمراقبة العمال

- وهو مركز أدي يطيّب للبعض التمتع بما يلبسه من رياسة وسلطة - فيمنح أجراً مضاعفاً ، ونفقات انتقال ، وبدل اغتراب ، ثم يعود فيجد في انتظاره خطاب شكر رقيق من المصلحة ، وخطاب تمجيد لبطولته ينشره النفعيون الصغار في الصحف ، وتبحث معى عن العمل المجيد الذى قام به ، فتجده ممثلاً فى أوامر قاسية مستبدة وقحة ، يذل بها الفلاح المسكين ، ويتمتع بشهوة الأمر والنهى حين يبتعد عن أوامر رؤسائه ونواهيهم ، ويجرب فى الفلاح مقدار استعداد حضرته لمراكز القيادة وكراسى الرياسة !
وينزع الفلاح الجائع المريض من أرضه للعمل ، فيكون جزاؤه الإذلال والحرمان ، ثم يعود فيجد فى انتظاره الخراب حيناً ، والعمل المتراكم أحياناً !
ورغم هذا كله نعرف جميعاً بشقاء الفلاح ، وهذا هو أقسى ما فى الأمر كله !

كم من المصريين يعرفون أن حفر ترعة الحمودية وحدها سنة ١٨١٩ أهلك اثني عشر ألفاً من الفلاحين المستخرين ؟ إنها حقيقة صادقة دامية ، ومع هذا دارت عجلة

الحياة في سيرها المعتاد ، وظلت السماء زرقاء صافية ، ولم تجعلها دماء الضحايا التي تبخرت مع الشمس ، حمراء قانية ملتربة ! والآن ؟ كم من ضحية لقانون العونة حين الفيضان كل عام ؟ لا أدري ! فقد تعودنا أن نقرأ إحصاء دقيقاً عن الأموال التي أنفقت ، وألا نقرأ شيئاً عن عدد الضحايا وعدد الأسر الريفية التي قد يهدمها ذهاب عائلها إلى مناطق المقاومة دون أجر ! ولعل إغفال هذه الناحية فيه نظر وإلا فمتى كان لأرواح الفلاحين سعر وثمان في سوق التعامل ؟ ولكني أخيراً ، أرجو ألا يخذعنا أن عجلة الحياة تسير ، وأن السماء ليست دامية حمراء ، فلا تزال لها زرقتها الصافية الفاتنة !

